أئمة الهدى

مَالِكُ بْنُ أَنَسَ

إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ



سفير

من ١٠-١٤سنة

أئمة الهدى

مَالِكُ بنُ أَنَسٍ

إمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ



كتبها

سلامة محمد سلامة

رسمها

عبد المرضى عبيد



شركة سفير

محمد، سلامة

أئمة الهدى «مَالِك»/ سلامة محمد

١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم

١- أئمة الهدى «مَالِك»

٢- الأطفال - تعليم

أ- محمد، سلامة ب- العنوان

ديوى/٢٢٩

رقم الإيداع : ١٣٩٥١ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : **ISBN:** 977 - 361 - 277 - 5

بَدَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ تَلُوحُ فِى الأُفُقِ البَعِيدِ، فَتَرَدَّدَتْ بَيْنَ أَرْجَائِهِ أَصْوَاتُ تَغْرِيدِ الطُّيُورِ، وَزَقْزَقَةُ العَصَافِيرِ، وَكَأَنَّها تَحْتَفِلُ مَعًا بِمِيلادِ ضَوْءِ الشَّمْسِ الذِى تَسَلَّلَ إِلَى أَعْشَاشِهَا فِى خِفَّةٍ مِنْ بَيْنِ أَغْصَانِ الأَشْجَارِ المُتَشَابِكَةِ التِى تَمْلأُ الوَادِى الفَسِيحَ، فَبَعَثَ فِى أَجْسَادِهَا الصَّغِيرَةِ الدِّفْءَ وَالحَرَكَةَ وَالنَّشَاطَ.

وَفِى وَسَطِ سَاحَةٍ وَاسِعَةٍ أَمَامَ مَنْزِلٍ بَسِيطٍ يَقَعُ عَلَى أَطْرَافِ الوَادِى،كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ مُقْعَدٌ قَدِ افْتَرَشَ الأَرْضَ، مُسْتَنِدًا بِظَهْرِهِ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ عَالِيَةٍ، وَرَاحَ يَصْنَعُ نِبَالَ الحَرْبِ بِمَهَارَةٍ وَإِتْقَانٍ، وَقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلَى قَسَمَاتِ وَجْهِهِ عَلامَاتُ القَلَقِ وَالتَّرَقُّبِ وَالاضْطِرَابِ بَعْدَ أَنْ أَوْشَكَتْ زَوْجَتُه أَنْ تَضَعَ مَوْلُودَهَا.

وَمَا إِن انْتَصَفَ النَّهارُ حَتَّى أَقْبَلَ نَاحِيَةَ الرَّجُلِ أَحَدُ أَبْنَائِهِ، وَهُوَ يَجْرِى بِسُرْعَةٍ، وَيَقُولُ فِى فَرْحَةٍ غَامِرَةٍ:

– أَبْشِرْ يَا أَبِى... أَبْشِرْ، فَقَدْ وَضَعَتْ أُمِّى مَوْلُودًا لَمْ أَرَ طِفْلا فِى وَضَاءَتِهِ وَجَمَالِهِ وَشِدَّةِ بَيَاضِهِ!!



لَمْ تَسَعِ الدُّنْيَا «أَنَسًا» وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَى تِلْكَ البِشَارَةِ حَتَّى كَادَ يَقِفُ لِفَرْطِ سَعَادَتِهِ ، لَكِنَّ قَدَمَيْهِ المُقْعَدَتَينِ حَالَتَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَحْقِيقِ ذَلِكَ، فَارْتَمَى الوَلَدُ بَيْنَ أَحْضَانِ أَبِيهِ فَضَمَّهُ الأَبُ إِلَيهِ بِقُوَّةٍ، وَأَخَذَ يُقَبِّلُهُ بِحَنَانٍ وَعَطْفٍ أَبَوِىٍّ كَبِيرٍ.

وَمَا إن التقطَ النَّبَّالُ المُقْعَدُ أنْفَاسَهُ حَتَّى طَلَبَ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُودَهُ إلَى دَاخِلِ البَيْتِ، لِيَطْمَئِنَّ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ.

تَوَجَّه «أَنَسٌ» بِصُعُوبَةٍ نَحْوَ غُرْفَةِ زَوْجَتِهِ وَالفَرْحَةُ تَمْلأُ عَيْنَيْه، ثُمَّ جَلَسَ إلَى جِوَارِهَا، وَأَخَذَ يُرَبِّتُ عَلَى كَتِفِهَا بِحَنَانٍ وَحُبٍّ، وَحَانَتْ مِنْهُ الْتِفَاتَةٌ نَحْوَ مَوْلُودِهِ الرَّاقِدِ بِجِوَارِ أُمِّهِ فَتَنَاوَلَهُ بِيَدِهِ، وَقَبَّلَهُ بِحِرْصٍ، ثُمَّ أَعَادَهُ إلَى جِوَارِ أُمِّهِ بِسَلامٍ، فَقَالَتِ الأُمُّ لِزَوْجِهَا وَهِيَ بَاسِمَةٌ: - مَاذَ سَتُسَمِّي وَلَدَنَا يَازَوْجِي الحَبِيبَ؟

فَقَالَ «أَنَسٌ» فِي فَرَحٍ: سَوْفَ أُسَمِّيهِ «مَالِكًا» عَلَى اسْمِ أَبِي «مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ» يَرْحَمُهُ اللَّهُ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَكُونَ مِثْلَ جَدِّهِ فِي العِلْمِ وَالفَضْلِ وَرَجَاحَةِ العَقْلِ.

نَشأَ الصَّغِيرُ «مَالِكٌ» بَيْنَ أَحْضَانِ «المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ»، وَكَانَتْ حِينَئِذٍ مَنَارَةً عَظِيمَةً مِنْ مَنَارَاتِ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ يَقْصِدُهَا العُلَمَاءُ وَالطُّلَّابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وبَدَأَ «مَالِكٌ» يَحْفَظُ القُرْآنَ الكَرِيمَ، فَأَظْهَرَ نُبُوغًا كَبِيرًا وَتَفَوُّقًا مُبَكِّرًا، وَاسْتَطَاعَ خِلالَ سَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ أَنْ يَحْفَظَ القُرْآنَ الكَرِيمَ كُلَّهُ، وَكَانَ مَازَالَ صَبِيًا صَغِيرًا دُونَ العَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، وَكَانَتْ أُمُّه تَلْحَظُ نُبُوغَهُ وَتَفَوُّقَهُ، فَكَانَتْ تَرْعَاهُ وَتَعْتَنِي بِهِ عِنَايَةً كَبِيرَةً، وَتَخْتَارُ لَهُ أَسَاتِذَتَهُ وَشُيُوخَهُ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَحْكِي لَهُ عَنْ جَدِّهِ «مَالِكٍ» العَالِمِ الجَلِيلِ الذِي بَلَغَ مِنَ المَكَانَةِ وَالقَدْرِ وَالعِلْمِ إلَى دَرَجَةِ أَنَّ «عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ» والِي «المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ» - حِينَئِذٍ - كانَ يَسْتَشِيرُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِهِ، فَأَحَبَّ «مَالِكٌ» العِلْمَ، وَأَحَبَّ مَجَالِسَ العُلَمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ إلَيهَا.

وَذَاتَ يَوْمٍ نَادتِ الأُمُّ الصَّالِحَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَقَالَتْ لَهُ بَعْدَ أَنْ أَلْبَسَتْهُ أَحْسَنَ الثِّيَابِ:

- لَقَدِ اخْتَرْتُ لَكَ يَابُنَيَّ العَالِمَ الجَلِيلَ «رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ» عَالِمَ المَدِينَةِ وَفَقِيهَهَا لِيَكُونَ أَوَّلَ مُعَلِّمٍ لَكَ،



فاذْهَبْ يا بُنَىَّ إليه، وَتَعلَّمْ عَلى يَدَيْه، لكِنْ عَلَيْكَ أنْ تتعَلَّمَ مِنْ أدبه أوَّلا قَبْلَ أنْ تتعَلَّمَ مِنْ عِلْمِه.

فَقَالَ «مَالِكٌ» فِى أدَبٍ: سَمْعًا وَطَاعَةً يَاأُمِّى.

وَمَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ كَانَ الصَّغِيرُ «مَالِكٌ» يَجْلِسُ إلَى أُسْتَاذِهِ يَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهِ فِى شَغَفٍ وَنَهَمٍ وَجِدٍّ وَنَشَاطٍ ، وَكَانَ «مَالِكٌ» عِنْدَمَا يَفْرُغُ مِنْ تَلَقِّى دُرُوسِهِ عِنْد أُسْتَاذِهِ يَجْلِسُ تَحْتَ ظِلالِ الأشْجَارِ فِى الطَّرِيقِ إِلَى بَيْتِهِ لِيُعِيدَ عَلَى نَفْسِهِ قِرَاءَةَ كُلِّ مَا أمْلاهُ عَلَيْهِ شَيْخُهُ، وَلا يَعُودُ إلَى بَيْتِهِ قَبْلَ أنْ يَنْتَهِىَ مِنْ حِفْظِهِ تَمَامًا، وَكَانَ «أَنَسٌ» أَبُو مَالِكٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ انْشِغَالِهِ بِعَمَلِهِ وَقُعُودِهِ عَنِ الحَرَكَةِ إلا أَنَّهُ كَانَ مُحِبًا لِلْعِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، وَيَحْفَظُ كَثِيرًا مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَدَائمًا مَاكَانَ يَجْمَعُ أَوْلادَهُ حَوْلَهُ لِيُتَابِعَ أَخْبَارَهُم ، وَيَقِفُ عَلَى مَدَى تَقَدُّمِهِم وَاسْتِيعَابِهِم لِدُرُوسِهِم، وَفِى أَحَدِ الأَيَّامِ سَأَلَ الأبُ أَوْلادَهُ مَسْأَلَةً فِقْهِيَّةً فَأَجَابَ عَنْهَا «النَّضْرُ» أَخُو« مَالِكٍ» الأكْبَرُ، وَأَخْطَأَ «مَالِكٌ» فِى الإجَابَةِ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ مُعَاتِبًا : لَقَدْ أَلْهَاكَ اللَّعِبُ بِالحَمَامِ يَابُنَىَّ عَنْ دُرُوسِ العِلْمِ، وَغَابَ عَنْكَ مَا عَهِدْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ دَأَبٍ وَنَشَاطٍ وَجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ، فَحَزِنَ «مَالِكٌ » كَثِيرًا لِحُزْنِ أَبِيهِ وَغَضَبِه، وَعَاهَدَ نَفْسَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى سَابِقِ هِمَّتِهِ وَدَأَبِهِ.

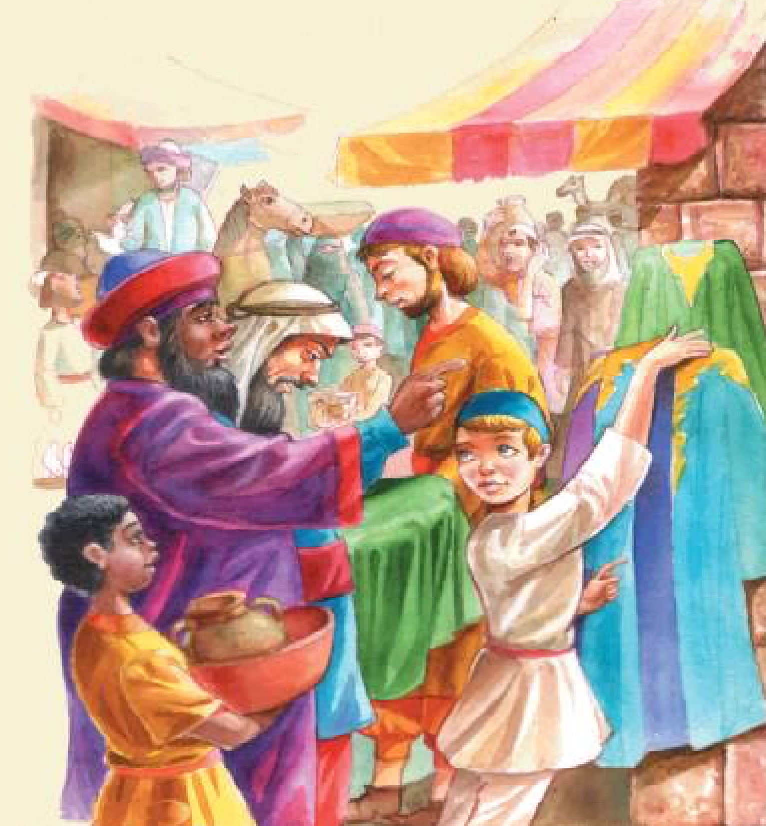
وَمَعَ نَسَمَاتِ الصَّبَاحِ الأولَى كَانَ «مَالِكٌ» يَحْمِلُ أدوَاتِهِ، وَيَنْطَلِقُ إِلَى حَلْقَةِ الشَّيْخِ « ابنِ هُرْمُزَ» أَحَدِ عُلَمَاءِ « المَدِينَةِ» الأجلاءِ لِيَأْخُذَ عَنْهُ العِلْمَ، وَظَلَّ التِّلْمِيذُ النَّجِيبُ مُلازِمًا لأُسْتَاذِهِ سَبْعَ سَنَوَاتٍ لا يَتْرُكُهُ أَبَدًا وَلا يَذْهَبُ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَحْشُو مَلابِسَهُ بِالقُطْنِ حَتَّى تَقِيهُ مِنْ بَرْدِ الأَرْضِ مِنْ طُولِ مَا كَانَ يَجْلِسُ أَمَامَ أُسْتَاذِهِ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ، وَقَدْ أَحَبَّ «ابْنُ هُرْمُزَ» «مَالِكًا» كَثِيرًا فَكَانَ يُشَجِّعُهُ، وَيَسْتَقْبِلُهُ فِى بَيْتِهِ فِى أَىِّ وَقْتٍ مِنْ لَيلٍ أَوْ نَهَارٍ.

سَمِعَ « ابْنُ هُرْمُزَ» يَوْمًا طَرْقًا عَلَى بَابِهِ، فَقَالَ لِجَارِيَتِهِ: انْظُرِى مَنْ بِالبَابِ، فَقَالَتْ : إِنَّهُ ذَلِكَ الصَّبِىُّ الأَشْقَرُ الذِى لا يَتْرُكُكَ أَبَدًا، فَقَالَ لهَا «ابْنُ هُرْمُزَ» : دَعِيهِ يَدْخُلْ فَذَلِكَ عَالِمُ النَّاسِ!!

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ انشغَالِ «مَالِكٍ» بِطَلَبِ العِلْمِ فِى هَذِهِ الفَتْرَةِ إلا أَنَّه لَمْ يَكُنْ يُهْمِلُ عَمَلَهُ فِى تِجَارَةِ الثِّيَابِ مَعَ أَخِيهِ «النَّضْرِ» بَلْ إنَّه كَانَ يُرَتِّبُ وَقْتَهُ بِصُورَةٍ تُثِيرُ الإعْجَابَ وَالدَّهْشَةَ بَيْنَ هَذَا وَذاكَ.

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ وَتَخَطَّى «مَالِكٌ» سِنَّ البُلُوغِ بِقَلِيلٍ، وَأَصْبَحَ حُبُّ العِلْمِ يَمْلأُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ ، وَأَصْبَحَتْ نَفْسُهُ لا تَرْضَى بِالقَلِيلِ فِيهِ، فَمَا يَكَادُ يَسْمَعُ بِعَالِمٍ إلا وَيَجِدُ نَفْسَهُ تَهْفُو إِلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ وَالتَّتَلْمُذِ عَلَى يَدَيْهِ، وَحَصْدِ مَاعِنْدَهُ مِن عِلْمٍ حَصْدًا، وَمَا إِنْ تَرَامَى إِلَى مَسَامِعِهِ خَبَرُ فَقِيهِ المَدِينَةِ الإِمَامِ العَالِمِ «نَافِعٍ الدَّيْلَمِىِّ» مَوْلَى «عَبدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى انْطَلَقَ يَجْمَعُ مَا وَرِثَهُ « نَافِعٌ» مِنْ فِقْهٍ وَحَدِيثٍ عَنِ الصَّحَابِىِّ الجَلِيلِ « عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ» ، فَكَانَ يَذْهَبُ إلى بَيْتِ شَيْخِهِ فِى البَقِيعِ خَارِجَ «المَدِينَةِ»، وَيظَلُّ وَاقِفًا يَتَرَقَّبُ خُرُوجَ الشَّيْخِ لِيَسْمَعَ مِنْهُ، وَيَتَعَلَّمَ عَلَى يَدَيْهِ.

ثُمَّ بَدَأَ «مَالِكٌ» رِحْلَةً جَدِيدةً إِلَى نَبْعٍ آخَرَ مِنْ يَنَابِيعِ العِلْمِ ، وَجَبلٍ مِنْ جِبَالِ الحَدِيثِ وَالفِقه الشَّيْخِ الجَلِيلِ «ابنِ شِهَابٍ الزُّهْرِىِّ» المُلَقَّبِ بِأَعْلَمِ الحُفَّاظِ، وَالذِى يُعَدُّ مِنْ أَوَائِلِ العُلَمَاءِ الذِينَ دَوَّنُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِرْصِ «مَالِكٍ» وَانْقِطَاعِهِ لِتَحْصِيلِ العِلْمِ عَنْ أُسْتَاذِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ يَوْمَ رَاحَةٍ، حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا اليَومُ هُوَ يَوْمَ العِيدِ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَتَحَيَّنُ أَيَّامَ الأَعْيَادِ لِيَذْهَبَ إِلَى بَيتِ شَيْخِهِ، لِعِلْمِهِ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يُزَاحِمَهُ فِى ذَلِكَ اليَوْمِ ، وَحَدَثَ أَنْ ذَهَبَ «مَالِكٌ» مَرَّةً فِى صَبَاحِ يَوْمِ عِيدٍ إِلَى بَيْتِ أُسْتَاذِهِ،



فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ مُسْتَغْرِبًا : ألا تَذْهَبُ إِلَى بَيْتِكَ يَابُنَىَّ لِتَحْتَفِلَ بِالعِيدِ كَالآخَرِينَ؟!!

فَقَالَ «مَالِكٌ» فِى أَدَبٍ :لا رَغْبَةَ لِى فِى ذَلِكَ يَا إِمَامُ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: وَمَاذَا تُرِيدُ إِذَنْ ؟!

فَقَالَ مَالِكٌ: أُرِيدُ أَنْ تُحَدِّثَنِى بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَسُرَّ الشَّيْخُ وَحَدَّثَهُ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا، فَقَالَ مَالِكٌ: زِدْنِى.

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: يَكْفِيكَ هَذَا القَدْرُ يَابنَىَّ، فَإِنْ حَفِظْتَهُ فَأَنْتَ مِنَ الحُفَّاظِ .



فَقَالَ «مَالِكٌ» : قَدْ حَفِظْتُهُ يَا أُسْتَاذِى. فَنَظَرَ «ابْنُ شِهَابٍ» إِلَيْهِ فِى دَهْشَةٍ، ثُمَّ أَخَذَ مَا فِى يَدِ «مَالِكٍ» مِنْ أَحَادِيثَ، وَقَالَ لَهُ : حَدِّثْنِى إِذَنْ بِمَا حَفِظْتَ!! فَحَدَّثَهُ «مَالِكٌ» بِالأَرْبَعِينَ حَدِيثًا كَمَا أَمْلاهَا عَلَيْهِ بِالضَّبْطِ، فَازْدَادَ سُرُورُ الشَّيْخِ وَقَالَ لَهُ بَعْدَ أَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ ثَنَاءً كَبِيرًا : قُمْ يَابُنَىَّ فَأَنْتَ مِنْ أَوْعِيَةِ العِلْمِ.

ظَلَّ «مَالِكٌ» يَتَنَقَّلُ بَيْنَ المُحَدِّثِينَ وَالفُقَهَاءِ وَالعُلَمَاءِ فِى نَشَاطٍ وَدَأْبٍ لا يَعْرِفُ الكَلَلَ أَوِ المَلَلَ، حَتَّى سَمِعَ مِمَّا يَقْرُبُ مِنْ تِسْعِمائَةِ مُحَدِّثٍ وَفَقِيهٍ، فَنَضِجَ عَقْلُهُ، واتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُ،

وَبَرَزَ بَيْنَ أَقْرَانِه فَقِيهًا نَابِغَةً، وَمُحَدِّثًا ثِقَةً، وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ «مَالِكٌ» فِى ذَلِكَ الوَقْتِ مِنْ سَعَةِ العِلْمِ، وَالقُدْرَةِ عَلَى التَّدْرِيسِ والإِفْتَاءِ، إِلا أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ مَجْلِسًا لِيُعَلِّمَ النَّاسَ إِلا بَعْدَ أَنْ أَجَازَهُ لِلتَّدْرِيسِ سَبْعُونَ شَيْخًا مِنْ عُلَمَاءِ المَدِينَةِ الثِّقَاتِ.

هَبَّتْ نَسَمَاتُ الرَّبِيعِ العَطِرَةُ عَلَى حَلَقَاتِ العِلْمِ المُنْتَشِرَةِ فِى المَسْجِدِ النَّبَوِىِّ الشَّرِيفِ، فَبَعَثَتْ فِى نُفُوسِ الجَالِسِينَ السُّرُورَ وَالفَرْحَةَ، وَفِى نَفْسِ المَوْضِعِ الذى كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ «عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ» لِلْحُكْمِ والقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ اتَّخَذَ الإِمَامُ «مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ» مَجلِسَهُ مقْتَدِيًا وَمُتَأَسِّيًا بِالفَارُوقِ «عُمَرَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ ذَلِكَ عَام (١١٨) هِجْرِيَّة، وَكَانَ عُمْرُ «مَالِكٍ» حِينَئذٍ نَحْوَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا، فالتَفَّ حَوْلَهُ طُلابُ العِلْمِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَقَصَدَهُ الفُقَهَاءُ والمُحَدِّثِينَ لِيَستَمِعُوا إِلَى حَدِيثِه وَفَتْوَاهُ، وَكَانَ مَجْلِسُ «مَالِكٍ» تُحِيطُ بِهِ المَهَابَةُ، وَتَشْمَلُهُ السَّكِينَةُ، وَيَلُفُّهُ الوَقَارُ، وَيَسُودُهُ الهُدُوءُ والأَدَبُ، وَكَانَ «مَالِكٌ» لا يَجْلِسُ إِلا إِذَا تَوَضَّأَ وَتَطَيَّبَ وَلَبِسَ أَحْسَنَ الثِّيَابِ وَأَجْمَلَهَا، احْتِرَامًا وَتَوْقِيرًا لِحَدِيثِ سَيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَمَا هِىَ إِلا سَنَوَاتٌ مَعْدُودَاتٌ حَتَّى بَلَغَتْ شُهْرَةُ «مَالِكٍ» الآفَاقَ، وَعَلَتْ مَنْزِلَتُهُ وَمَكَانَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَسَمِعَ لَهُ الأُمَرَاءُ، وَأَخَذَ بِمَشُورَتِهِ الخُلَفَاءُ وَالقُضَاةُ، وَنَادَى مُنَادٍ فِى «المَدِينَةِ»: أَلا لا يُفْتِى النَّاسَ إِلا «مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ» و«ابنُ أَبِى ذِئْبٍ»، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ «المَدِينَةِ» الكِبَارِ.

وَمُنْذُ أَنْ جلَسَ الإمَامُ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ لَمْ يَعْرِفِ التَّمَلُّقُ أَوِ النِّفَاقُ وَحُبُّ الجَاهِ إلى قَلْبِهِ سَبِيلا، بَلْ كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شُجَاعًا مُحِبًا لِقَوْلِ الحَقِّ مُسْدِيًا النُّصْحَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِنْ مَشَقَّةٍ أَوْ عَنَاءٍ، وَقَدْ تَكَبَّدَ الإمَامُ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ أَنْ تَجَرَّأَ عَلَيْهِ «جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ» وَالِى «المَدِينَةِ» وَاتَّهَمَهُ بِتَشْجِيعِ الثَّائِرِينَ عَلَى الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ، فَنَكَّلَ بِهِ ، وَضَرَبَهُ حَتَّى خَلَعَ كَتِفَهُ، وَأَسَاءَ إِلَيْهِ إِسَاءَةً لا تَلِيقُ بِعَالِمٍ جَلِيلٍ مِثْلِهِ.

فَلَمَّا عَلِمَ الخَلِيفَةُ العَبَّاسِيُّ « أَبُو جَعْفَرٍ المَنْصُورُ» بِمَا حَدَثَ لإمَامِ دَارِ الهِجْرَةِ تَرَكَ «بَغْدَادَ» ، وَقَصَدَ «مَكَّةَ» حَاجًا عَامَ (١٤٦) هِجْرِيَّة، وَقَابَلَ الإمَامَ «مَالِكًا» عِنْدَ «مِنَى» وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ بِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ وَقَدْرِهِ قَائلاً: وَاللَّهِ الذى لا إِلَهَ إلا هُوَ مَا أَمَرْتُ بِالّذِى فَعَلَ ذَلِكَ الوَالِى وَلا عَلِمْتُهُ ، وَإِنَّهُ لا يَزَالُ أَهْلُ الحَرَمَيْنِ بِخَيْرٍ مَاكُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَسَوفَ أُنْزِلُ بِعَدُوِّ اللَّهِ «جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانُ» مِنَ العُقُوبَةِ أَضْعَافَ مَا نَالَهُ مِنْكَ .

فَسُرَّ الإمَامُ بِقَولِ الخَلِيفَةِ، وَقَالَ لَهُ فِى سَمَاحَةٍ: يَاأَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قَدْ عَفَوْتُ عَنْ «جَعْفَرٍ» لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقَرَابَتِهِ مِنْكَ.

وَتَعَدَّدَتِ اللِّقَاءَاتُ بَيْنَ الخَلِيفةِ « أَبِى جَعْفَرٍ المَنْصُورِ»، والإمَامِ «مَالِكٍ» وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ الخَلِيفَةُ يُجِلُّهُ كَثِيرًا ، وَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيُغْدِقُ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَقولُ فِى حَقِّهِ: « واللَّهِ مَا عَلَى الأَرْضِ اليَوْمَ رَجُلٌ يُستَحْيَا مِنْهُ إلا «مَالِكُ بنُ أَنَسٍ» ، وَ«سُفْيَانُ الثَّورِىُّ».

وَفِى إِحْدَى اللِّقَاءَاتِ طَلَبَ مِنهُ الخَلِيفَةُ أَنْ يُؤَلِّفَ كِتَابًا، يَتَضَمَّنُ مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رضى اللهّ عنهم والأَئمَّةُ مِنْ رَأْيٍ لِيَحْمِلَ النَّاسَ فِى جَمِيعِ بِلاد الإِسلامِ عَلى القَضَاءِ بِمَا فِيهِ وَعَدَمِ مُخَالَفَتِهِ.

فَأَجَابَهُ إلى طلَبِهِ، وَاشْتَرَطَ عَلَيهِ أَلا يَفْرِضَ كِتَابَهُ عَلَى النَّاسِ ، فَقَدْ يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِمْ رأْيًا عَنْ صَحَابِيٍّ غَيْرِ مَا رَأَى هُو فَيُضيِّقُ بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ أَمْرًا فِيهِ سَعَةٌ.

فَذَهَبَ الإمَامُ إلَى بَيْتِهِ وَقَضَى لَيْلَه ساهِرًا يُفكِّرُ فِى ذَلِكَ العَمَلِ الجَلِيلِ الذِى شَغَلَ عَقْلَه، وَمَا إنْ بَزَغَ ضَوْءُ الفَجْرِ، وَبَدَّدَ بِنُورِهِ ظَلامَ اللَّيْلِ ، حَتَّى كَانَ الإمَامُ قَدْ عَقَدَ عَزْمَهُ ، وَجَهَّزَ أدَوَاتِه، وَعَكَفَ يَجْمَعُ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّه ﷺ ، وَأَقْوَالَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَا اجْتَمَعَ عَلَيهِ أَهْلُ المَدِينَة مِنْ رَأْى ، وَمُنْذُ بِدَايَةِ سَنَة (١٤٨) هِجْرِيَة، وَطَوَالَ أَحَدَ عَشَرَ عَامًا ظَلَّ الإمَامُ يُمَحِّصُ وَيُهَذِّبُ وَيُنَقِّحُ ، مُتَحَمِّلا المَشَقَّةَ وَالتَّعَبَ وَطُولَ السَّهَرِ فَكَانَتْ ثَمَرَةُ هَذَا الجُهْدِ العَظِيمِ كِتَابَ «المُوَطَّأ» أَىّ المُيَسَّرِ فِى عُلُومِ الفِقْهِ وَالحَدِيثِ، وَمَا إنْ خَرَجَ هَذَا العَمَلُ إِلَى النُّورِ عَامَ (١٥٩) هِجْرِيَّة حَتَّى امْتَدَحَهُ كِبَارُ العُلَمَاءِ، وَاعْتَزَّ بِهِ الفُقَهَاءُ، وَذَاعَتْ شُهْرَتُه بَيْنَ البِلادِ وَالعِبَادِ، وَأَصْبَحَ فِقْهُ الإمَام «مَالِك» وَمَذْهَبُهُ يَنْتَشِرُ فِى حَوَاضِرِ العَالَمِ الإِسْلامِىِّ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَى أَدْنَاهُ ، وَفُتِحَتْ عَلَى الإمَامِ أَبْوَابُ الخَيْرِ بَعْدَمَا عَانَى طَوِيلا مِنْ ضِيقٍ فِى الرِّزْقِ وَشِدَّةٍ فِى العَيْشِ، لِدَرَجَةِ أَنْ بَلَغَ بِهِ الحَالُ أَنْ نَقَضَ سَقْفَ بَيْتِه لِيَبِيعَهُ وَ يَسْتَفِيدَ مِنْ ثَمَنِه لِيَسُدَّ جُوعَ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِه الأَرْبَعَة، ثُمَّ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْه نِعَمَهُ وَمَنَحَهُ مِنْ فَضْلِه، وَانْهَالَتْ عَلَيْه العَطَايَا وَالجَوَائِزُ مِنَ الأُمَرَاءِ وَالسَّلاطِينِ وَالخُلَفَاءِ، فَكَانَ الإمَامُ يُنْفِقُهَا فِى كَثِيرٍ مِنْ أَوْجُهِ الخَيْرِ، وَيَكْفُلُ عَدَدًا غَيْرَ قَلِيلٍ مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ، وَيُنْفِقُ عَلَى يَتَامَى المُسْلِمِينَ وَفُقَرَائِهِم بِسَخَاءٍ وَكَرَم ، فَأَحَبَّهُ النَّاسُ حُبًا جَمًّاوأثنوا عَلَيْه ثَنَاءً عَظِيمًا ، واتَّخَذُوه قُدْوَةً يُهْتَدَى بِه.

فَقَدْ كَانَ الإمَامُ «مَالِكٌ» قِمَّةً عَالِيةً فِى العِلْمِ وَالخُلُقِ وَالفَضْلِ، عَفِيفَ اللِّسَان ، صَادِقَ الحَدِيثِ، تَقِيًا وَرِعًا عَابِدًا، لا يَتْرُكُ قِيَامَ اللَّيْلِ ولا قِرَاءَةَ القُرْآنِ، مُخْلِصًا مُتَوَاضِعًا لا يَعْلُو بِعِلْمِهِ وَلا مَقَامِه عَلَى أَحَدٍ.

أَرْسَلَ الخَلِيفَةُ العَبَّاسىُّ «هَارُونُ الرَّشِيدُ» يَوْمًا أَثْنَاءَ زِيَارَتِه لِلْمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ إِلَى الإمَامِ «مَالِكٍ» لِيَأْتِىَ إِلَيْه وَيُحَدِّثَهُ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّه ﷺ، فَأَرْسَلَ الإمَامُ إِلَى الخَلِيفَةِ قَائِلا :

- يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ العِلْمَ يُؤْتَى إِلَيْه وَلا يَأْتِى.

- فَرَدَّ عَلَيْهِ الخَلِيفَةُ قَائِلا : نَأْتِى إِلَيْكَ وَنَمْنَعُ النَّاسَ عَنِ الحُضُورِ إِلَيْكَ حَتَّى أَنْصَرِف مِنْ مَجْلِسِكَ.



- فَقَالَ الإمَامُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إذَا مُنِعَ العِلْمُ مِنَ العَامَّةِ لَمْ يَنْفَعِ اللَّهُ بِهِ الخَاصَّةَ وَالعَامَّةَ.

فَذَهَبَ الرَّشِيدُ إِلَى مَنْزِلِ «مَالِكٍ» وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوَاضُعًا لِعِلْمِهِ، وَإِجْلالا لِمَكَانَتِهِ وَفَضْلِهِ.

وَتَمْضِى الأَيَّامُ ، وَتَنْطَوِى السُّنُونَ، وَيَتَقَدَّمُ العُمْرُ بِالإمَامِ؛ فَيَلْزَمُ بَيْتَهُ لا يَخْرُجُ مِنْهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنْ تَعْلِيمِ النَّاسِ، وإِسْدَاءِ النُّصْحِ والمَشُورَةِ لِكُلِّ مَنْ يَطْرُقُ بَابَهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ الإمَامُ السَّابِعَةَ وَالثَّمَانِينَ مِنْ عُمْرِهِ اشْتَدَّ عَلَيْهِ المَرَضُ، فَمَنَعَهُ تَمَامًا عَنِ الحَرَكَةِ، وَظَلَّ كَذَلِكَ أَيَّامًا ، وَفِى اليَوْمِ العَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ (١٧٩) هِجْرِيَّة (٧٩٥) مِيلادِيَّة صَعِدَتْ رُوحُ الإمَامِ الطَّاهِرَةُ إِلَى بَارِئِهَا ، وَحُمِلَ جَسَدُهُ الشَّرِيفُ عَلَى الأَعْنَاقِ لِيُصَلَّى عَلَيْهِ فِى نَفْسِ المَوْضِعِ الذى أَمْضَى فِيهِ عُمْرَهُ تِلْمِيذًا نَجِيبًا ، ثُمَّ مُعَلِّمًا جَلِيلا ثُمَّ وُرِىَ الجَسَدُ الشَّرِيفُ فِى تُرَابِ «البَقِيعِ».



قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

«يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَضْرِبُوا أَكْبَادَ الإِبِلِ فَلا يَجِدُونَ عَالِمًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ المَدِينَةِ».

مَالِكٌ فِى سُطُورٍ

اسْمُه وَنَسَبُه: هُوَ أبُو عَبْدِ اللَّه مَالِكُ بنُ أنَسِ بْنِ مَالِك بْنِ أبِى عَامرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الحَارِث» – يَنتَهِى نَسَبُ الإمَامِ إِلَى المَلِك «ذِى أَصْبَح» مِنْ قَبِيلَةِ «الأصْبَحِيَّةِ» ، وَهِىَ قَبِيلَةٌ حِمْيَرِيةٌ عَرَبِيَّةٌ كَبِيرَةٌ، كَانُوا مِنْ مُلُوكِ اليَمَنِ فِى الجَاهِلِيَّةِ.

أبُوه : «أنَسُ بْنُ مَالِك» وَهُوَ غَيْرُ الصَّحَابِىِّ الجَلِيل «أنَس بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ النَّجَّارِىِّ الأنْصَارِىِّ» خَادمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِهِ.

أُمُّه: «العَالِيَةُ بِنْتُ شَرِيك بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَرِيك الأزْدِيَّةِ» و«الأزْد» مِنْ أَشْهَرِ قَبَائِلِ العَرَبِ القَحْطَانِيَّةِ.

جَدُّهُ: «مَالِكُ بْنُ أبِى عَامِرٍ» كَانَ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِين وَعُلَمَائِهِمْ، رَوَى عَنْ «عُمَرَ»، وَ«عُثْمَانَ»، وَ«عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ»، و«أَبِى هُرَيْرَةَ»، وَكَانَ أَحَدَ الأرْبَعَةِ الذين حَمَلُوا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ «عُثْمَانَ بْنَ عَفَّان» لَيْلا إلَى قَبْرِهِ، وَقَدْ تُوفِّى «مَالِكٌ» سَنَةَ (٩٤) هِجْرِية.

أوْلادُهُ : كَانَ للإمَامِ «مَالِكٍ» أرْبَعَةُ أوْلادٍ هُمْ: «يَحْيَى» ، و«مُحَمَّدٌ» و«حَمَّادٌ»، و«فاطِمَةُ» والتِى قيل إنَّها كَانَتْ تَحْفَظُ كِتَابَ «المُوَطَّأ» .

مَوْلِدُه : وُلِدَ الإمَامُ «مَالِكٌ» سَنَة (٩٣) هِجْرية، (٧١٢) ميلاديَّة بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فِى خِلافَةِ «سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ الأمَوِىِّ».

صِفَاتُه الجِسْمِية : كَانَ الإمَامُ «مَالِكٌ» طَوِيلا ، ضَخْمَ الجِسْمِ ، أَشْقَرَ، أَزْرَقَ العَيْنَيْنِ، حَسَنَ الوَجْهِ.

مَكَانَتُه وأَلْقَابُه العِلْمِيَّة : إمَامُ دَارِ الهِجرَةِ ، أَحَدُ الأئمَةِ الأرْبَعَةِ، مُؤَسِّسُ المَذْهَبِ المالِكِى.

عَصْرُه : عَاشَ «مَالِكٌ» نَحْوَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً (٩٣–١٧٩هـ= ٧١٢–٧٩٥م) عَاشَ مِنْهَا فِى عَصْرِ الخِلافَةِ الأُمَوِيَّةِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَفِى عَصْرِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ نَحْوَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً.

شُيُوخُه : أخَذَ «مَالِكٌ» العِلْمَ عَنْ نَحْوِ تِسْعمائَةِ شَيْخٍ ، كَانَ مِنْهُمْ نَحْوَ ثَلاثمائَة مِنَ التَّابِعِين ، وَنَحْوِ سِتِّمائَةٍ مِنْ تَابِعِى التَّابِعِينَ، وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ : « رَبِيعَةُ بْنُ أَبِى عَبدِ الرَّحْمَنِ» ، و «ابْنُ هُرمُزَ» ، و«نَافِعٌ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ» ، و«ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِىُّ» .

تَلامِيذُه : تَخَرَّجَ عَلَى يَدِ الإمَامِ أُلُوفُ التَّلامِيذ، وَصَارَ مِنْهُم أئمَّةٌ أعْلامٌ ، بَلْ إنَّ مِنْهُم مَنْ أَصْبَحَ صَاحِبَ مَذْهَبٍ فِقْهِىٍّ كَبِيرٍ ، وَهُوَ الإمَامُ « الشَّافِعِىُّ»– رَحِمَهُ اللَّه– وَمِنْ أَشْهَرِ تَلامِيذِ الإمَامِ «مَالِك» أَيْضًا ، «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ القَّاسِمِ» ، و «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ»، و« أَشْهَبُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ القَيْسِىُّ» ، و «زِيَادُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ» المُلَقَّبُ بِشَبَطُّون.

كُتُبُه : « المُوطَّأُ» وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِه ، وَقَد امْتَدَحَهُ الإمَامُ الشَّافِعِىُّ» قَائِلا : « مَافِى الأَرْضِ – حَتَّى زَمَانه طَبْعًا – كِتَابٌ فِى العِلْمِ أَكْثَرُ صَوَابًا مِنْ مُوَطَّأ «مَالِكٍ». وَلَهُ أَيْضًا كِتَابُ « تَفْسِيرِ غَرِيبِ القُرْآنِ » ، و«النُّجُومِ»، و«المَسَائِل»، ورِسَالَةٌ فِى « الوَعْظِ» .....وغيرها .

وَفَاتُه: تُوفِّىَ الإمَامُ «مَالِكٌ» فِى اليَوْمِ العَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ (١٧٩) هـ ، ودُفِنَ فِى «البَقِيعِ » عَنْ عُمْرٍ يُنَاهِزُ السَّابِعَةَ وَالثَّمَانِين عَامًا .

